سلسلة دروس المنهاج النبوي 2

الفطرة و علاج القلوب

الأستاذ عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة دروس
المنهاج النبوي

2

الفطرة وعلاج القلوب

الأستاذ عبد السلام ياسين

هذه السلسلة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه.

الحمد لله الملك الوهاب الحكيم العليم، الفاتح أغلاق الأفئدة الهادي إلى الصراط المستقيم، القاسم أرزاق العباد فمقتر وذو سعة كريم، ونشهد أنه الله لا إله إلا هو البر الرحيم، فتق رتق أسماع أصفيائه فأصغوا إلى ذكر الله وما لغوا فيه، وروى بواطن قلوبهم باليقين المطمئن فسالت فيها أودية المحبة بقدر نبيه.

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد بن عبد الله رسوله مشكاة النور، وسراج الحضرة الربانية المصطفى المعصوم الأمين المبلغ المبرور، صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه أنبياء الله وآله وصحبه ومن والاه.[1]

---

(1) مقدمة المنظومة الوعظية.

أما بعد، إخواننا وأخواتنا نقدم بين أيديكم الحلقة الثانية من سلسلة دروس المنهاج النبوي التي ألقاها مرشدنا عبد السلام ياسين حفظه الله في مطلع هذا القرن المبارك، قرن الخلافة على منهاج النبوة نفرغها من الأشرطة المسموعة الأصلية. وفي مطبوعاتنا بعض التنقيحات أحيانا، فما المسموع كالمقروء.

والأمل معقود في أن تلقى هذه المبادرة استحسانا وقبولا من جميع الإخوة والأخوات.

فالقصد أن تعم الفائدة، ورجاؤنا فيه سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا هذا خالصا متقبلا.

اللهم ارزقنا سلامة قلوبنا لتصلح لك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سلا ليلة الثلاثاء 16 جمادى الأولى 1419 هـ

المجلس الثاني من مجالس المنهاج النبوي المنعقد يوم الجمعة العشرين من محرم الحرام 1401

تحدثنا فيما سبق عن تجديد الدين، وأوردنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما رواه أبو داود والحاكم في مستدركه والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إنَّ الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**». ووجدنا أن الدين في القرآن الكريم هو الإسلام، يقول الله عز وجل ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ**﴾[1]، ووجدنا أن الدين في القرآن هو إخلاص العمل لله عز وجل، يقول تعالى : ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[2].

ووجدنا أن الدين هو النصيحة في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه، وأورد هنا اللفظ لمسلم، عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(1) آل عمران، الآية 19.
(2) البينة، الآية 5.

وسلم : «الدين النصيحة، قلنا لمن يارسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

فها نحن نرى عموم الدين وشموليته، وضرورة تجديده، ووعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. ونحن في مطلع القرن الخامس عشر، قرن التجديد إن شاء الله، نترقب أن يفي الله تعالى بوعده الذي قطعه لنا على نفسه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكن هذا الانتظار لا يعني أننا ننتظر مبعوثين ينوبون عنا في جهاد أعدائنا، لا ! ولا نتوقع أن يفعل غيرنا ما يجب علينا أن نفعله من الجهاد في سبيل الله، والقيام والسعي لتجديد الإسلام بأيدينا وبأعمالنا.

أوردنا في المجلس الأول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما رواه الإمام أحمد في المسند، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**جددوا**

إيمانكم، قالوا:كيف نجدد إيماننا يارسول الله؟ قال : أكثروا من قول لاإله إلا الله». هنا لم يتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن معنى الإيمان، ولا عن موطن الإيمان، ولا عن المنطلق الذي منه يتجدد الإيمان. قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**». فتجديد الدين وتجديد الإيمان يترتبان على وجود دعاة يجدد الله بهم الدين على رأس كل مائة سنة، ويترتب أيضا على الإكثار من قول لا إله إلا الله.

وسنخصص بحول الله عز وجل في أحاديثنا المقبلة وقتا وجهدا لكي نفهم معنى الإكثار من قول «لاإله إلا الله»، فإن لها معنى واسعا غير الذي يتبادر إلى الذهن وهو الإكثار من القول باللسان، فإن القول بالمعنى الذي يقصد في لسان العرب يشمل القول باللسان، والقول بالجوارح، والقول بالقلب، والقول العام الشامل؛ يعني الموقف العام للمؤمن.

واليوم نأتي بحديث حسن رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك. يقول رسول الله صلى الله عليه

وسلم: «**إن الإيمان ليَخْلُقُ في جوف أحدكم كما يخلُقُ الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم**».
هنا وصف للإيمان البالي، الضعيف، الغافل أهله، الضعفاء أهله، وصفه رسول صلى الله عليه وسلم بأنه يَخْلُقُ، يصير خَلَقًا. الثوب الخَلَقُ هو الثوب الرث الأملس القديم الممزق. اخلولق الثوب، وخلُقَ الثوب : صار باليا رثا ممزقا أملس.

في هذا الحديث الشريف ذكر لموطن الإيمان، ومنبع الإيمان، وهو القلب. وفيه أيضا نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره لنا أن نسأل الله عز وجل أن يجدد الإيمان في قلوبنا. ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾[1]. إيمان يدخل إلى القلب، يتجدد في القلب، ينبع من القلب.

فسعي الأفراد منا لتجديد إيمانهم ينبغي أن يبدأ من تصحيح النيات في القلوب، من تنظيف القلوب، من تطهير القلوب، من تزكية النفس، ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ**

(1) سورة الحجرات، الآية 14.

اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[1]، **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾**[2].
يخلُق الإيمان في القلوب كما تخلُق الثياب.

يكون الثوب جديدا فيخلولق ويصير باليا رثا، قذرا، ملوثا، ممزقا، وكذلك الإيمان يكون في القلب جديدا ثم يبلى ويخلق حتى يصير القلب مسودا مظلما ،حتى تخرج منه معاني الاستقامة ومعاني الدين ومعاني الإيمان. هذا ما يحدُثُ بالأفراد، وعندما يَنْسحب الإيمان من قلوب الأفراد يَنسحب الإيمان والإسلام والدين من واقع المسلمين.

لا يمكن أن يتجدد للمسلمين دين ولا أن تستجد لهم عزة بعد الذل ولا قوة بعد الضعف، إن لم يبدأ البناء من القلوب. معنى هذا أن تجديد الإسلام ينبغي أن يبدأ من التربية والتزكية الذين ينبغي أن يصبا جهودهما على تطهير النفوس، وعلى تزكية النفوس.

---

(1) سورة الأعلى، الآية 14-15.
(2) الشمس، الآية 7-8-9-10.

ها هو ذا أمامنا وصف لحالة التدهور في أمور الدين، ولحالة الضعف في الإيمان، ولحالة البلى في عزائم القلوب.

أمامنا ثلاثة أحاديث، الأول منها يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»، وفي الحديث الثاني والثالث يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجديد الدين والإيمان. فلابد أن يكون تجديد الدين وتجديد الإيمان أمرين متطابقين أو متوافقين أو متقاربين أو متكاملين.

عند بعض العلماء لا نجد تمييزا بين معنى الدين ومعنى الإيمان والمعاني الأخرى التي نجدها في القرآن. لمن أراد منكم أن يتوسع في هذا الموضوع، في معاني الدين، فليقرأ الكتاب الذي كتبه الشيخ الإمام المودودي «المصطلحات الأربع». هذا الكتاب المهم والأساسي، وإن كان صغير الحجم، يبحث في التصورات الأساسية التي عليها يدور فهم الدين، وكان لهذا

الكتاب أثر بالغ في تفكير رجال مثل سيد قطب رحمه الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وهكذا أسماء دينه الذي أمر به الله ورسوله يسمى إيمانا وبِرا وتقوى وخيرا ودينا وعملا صالحا وصراطا مستقيما ونحو ذلك، وهو في نفسه واحد لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التي يدل عليها الآخر.

فعند ابن تيمية أن الدين، والإيمان، والخير، والبر، والتقوى، والعمل الصالح، والاستقامة، كلها أسماء لمسمى واحد، وإن كانت تختلف في فروع النظر.

في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف نجد أن هذه المعاني (الدين، الإيمان، البر، التقوى، العمل الصالح، الاستقامة) كلها ترجع إلى القلب. أحيانا هذا القلب يعبر عنه بالصدر في مثل قوله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[1]، تارة يعبر عنه بالوجه في مثل قوله عز وجل: ﴿ **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ**

(1) سورة الملك، الآية 13.

حَنِيفاً﴾[1]. وأحيانا كثيرة يعبر عنه بالقلب، وسنتعرض لهذا اللفظ في القرآن في مستقبل الجلسات إن شاء الله.

إننا نريد أن نركز على هذه المعاني التي غفل عنها المسلمون، واشتغلوا بفروع فقهية، أو فروع سياسية، أو فروع حركية، أو فروع خلافية فأضاعوا وضيعوا. هذه فروع، ومن الضروري أن نتناصح فيها وأن نتفاهم عليها وأن تكون واضحة أمامنا. لابد لنا من فقه في العبادات، لابد لنا من تنظيم وتحرك، لابد لنا من اشتغال بالأمر العام وهو الأمر السياسي، وهو الاعتراض على الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لابد لنا من السعي لمعرفة أسباب الخلاف بين المسلمين، لا لكي نتمادى في الخلافات، ولكن لكي نقطع جذور الخلاف والجدل حتى يمكن لنا بعد ذلك أن نتفرغ لتربية النفوس وإعداد الرجال المؤمنين الذين تم صدقهم وإقبالهم على الله عز وجل، رجالٍ لا ينظرون إلى إخوتهم المسلمين ينتظرون زلة من زالٍّ أو فجوة علم

(1) الروم، الآية 30

عند متعلم لكي يخالفوه ويحاربوه، ولا ينظرون إلى صفوف المسلمين يحملون لواء الدعوى بالطهارة والصلاح من دون الناس، فيقول أحدهم وهو ممتلِئٌ بأنانيته: صلاة هذا باطلة، وصلاة ذاك ناقصة، وإيمان هذا غير موجود ..إلخ.

استطردت هذا الاستطراد لكلمة تعرضت لها في الجلسة الفارطة، فيما يتعلق بجمع الصلاة، في سؤال طرَحهُ علي طلبة يدخلون الدرس فلا يخرجون إلا بعد فوات وقت الصلاة، فأشرت أن من الممكن ومن رخص الإسلام أن يصلي المضطر صلاة جمع قبل الوقت :الظهر والعصر مثلا، قبل الدخول إلى قاعة الدرس. فجاءني طالب، نبيه، ذكي، فقيه، لا يوافق على ما قلت.

فأريد بهذا الاستطراد أن نتفاهم على أمر، هو أن مجالسنا هذه هي للاستفادة ،نحن نستفيد جميعا، فلا نحب أن يتدرج بنا الأمر إلى جدل عقيم وإلى خلاف في الفقهيات؛ هذا ليكون الأمر واضحا. على أن الصلاة جمعا قبل الوقت،

جمع الظهر والعصر، المغرب والعشاء، هو موضوع خلافي كثر فيه الكلام .

في الباب أحاديث صحيحة منها ما رواه الشيخان ورجال السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى سبعا وثمانيا الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. هذا حديث صحيح متفق عليه.وحديث صحيح آخر، رواه الجماعة غير البخاري وابن ماجة: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «**جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر والمغرب والعشاء من غير خوف ولا مطر. قالوا : لم فعل رسول الله ذلك؟ قال: لكي لا يحرج أمته. قال الله عز وجل :﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[1].

الحديث واضح والخلاف بين علماء المسلمين معروف. بيْنَ الإمام النووي والحافظ ابن حجر؛ النووي يحمل الجمع الوارد في الحديثين على أنه جمع تسبيق. معنى تسبيق : جمع

(1) سورة الحج، الآية 76.

صلاة الظهر والعصر قبل وصول وقت العصر، وجمع المغرب والعشاء قبل وصول وقت العشاء.

وأورد الحافظ ابن حجر كلاما لبعض العلماء يرفضون هذا. وللترمذي رضي الله عنه كلام في هذا كثير، روى حديثا فيه ضعف من طريق ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من جمع بين الصلاتين من غير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر**». ويقول الترمذي رضي الله عنه: إن الأحاديث التي وردت في سننه كلها عمل بها السلف الصالح إلا حديثين اثنين :

أولهما يتحدث عن جمع الصلاة، وهو الذي رواه الجماعة إلا البخاري –وإن كان على شرطه– وابن ماجة من قول ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «**جمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء بالمدينة، من غير خوف ولا مطر. فقيل لابن عباس : ما أراد بذلك ؟ قال : أراد ألا يحرج أمته**».

قال الترمذي بعد أن أورد هذا الحديث: هذا حديث ليس عليه العمل عند السلف الصالح، وهو حديث صحيح كما ترون.

والحديث الثاني الذي قال الترمذي إن السلف الصالح لم يعملوا به هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق معاوية في حد شارب الخمر: «**من شرب الخمر فاجلدوه فإن عاد في الرابعة فاقتلوه**». هذان الحديثان شك فيهما الترمذي، والموضوع على كل حال متشعب .

أريد أن أقول لإخوتي : إن هذه الخلافات الفقهية لا سَعَةَ في عمرنا لها، لأننا إن دخلنا هذه الخلافات فسنبقى فيها، وسيختلف بعضنا مع بعض كما اختلف علماء المسلمين طيلة أربعة عشر قرنا. فلا نريد أن تذهب جهودنا في هذه الخلافات. فما دامت المسألة خلافية، وما دام عبد الله ابن عباس يقول في الحديث الصحيح إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك لكي لا يكون على أمته حرج، فقد انتهى الأمر، اجمع أو قصِّر أو صلِّ بعد الوقت أو افعل

ما شئت، اجتهد لنفسك إن استطعت أن تكون مجتهداً. نريد أن نرجع للأصل وهو الإيمان وإلى منبعه وموطنه وهو القلب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة، سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**» هذا حديث صحيح متفق عليه.

وإنما أوردت كلمة ابن تيمية لأن بعض الناس يتخذون هذا الشيخ الإمام لواءً لكي يدافعوا عن إسلام لا يتحدث عن التزكية ولا عن التربية القلبية ولا عن المعاني الباطنية .

نجد هنا حديثا آخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي**

القلب». فالقلب يفسد فتفسد معه أدوات العمل التي يحتويها الجسم، يفسد معه العقل، يفسد معه عمل الجوارح، يفسد معه الشخص كله.

أشدُّ أنواع الفساد فساد القلب، يشير إلى ذلك ما أوردناه في الحديث الأول الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إن الإيمان ليخلُق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم**». وفي رواية أخرى من روايات الحديث، هي للإمام أحمد: **يخلق كما يخلق الثوب**.

فإذا تمعنا في هذا الحديث الشريف أدركنا أن القلب تطرأ عليه حالات غفلة عن الله عز وجل، تطرأ عليه المعاصي، تطرأ عليه الانحرافات فتتراكم عليه حتى يصبح رذيلا باليا، رثا ممزقة معانيه، قذراً محتواه، وهذا أشد أنواع الفساد.

المعاصي تستدرك بالتوبة، تستغفر الله وتتوب إليه،

وتجدد العزم فيمحو الله ما كان من نكت سوداءِ تُنْكَتُ في القلب من أثر المعاصي تتوبُ وترجو عفو الله الغفور الرحيم.

في الحديث المعروف الذي رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِلَ قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تَعْلُوَ قلبَه**». الحديث يحدثنا عن القلب، والأحاديث عن القلب كثيرة، نعود إليها إن شاء الله في جلسة خاصة.

إذن، هناك حالة صحية للقلب، حالة صلاح، وهناك حالة فساد، ومن جملتها حالة البِلى وحالة الاخليلاق. ننظر إلى الحالة الأصلية؛ حالة الصحة: القلب الصحيح ماهو ؟ كيف يكون؟

إن الله عز وجل خلق الإنسان على فطرة مستقيمة، فينحرف المرء عن هذه الفطرة ويعوج ويفسد قلبه. خلق الله

عز وجل أبانا آدم على الفطرة فكان نموذجا للكمال، لايعرف غير الاستقامة لله دينا، ولا يعرف غير الإخلاص له طريقا. وهكذا يكون بنو آدم في نشأتهم الأولى قبل أن يبلغوا التكليف. فإذا بلغوا التكليف وكان مجتمعهم فاسداً أثر ذلك الفساد الاجتماعي في فطرتهم وحرفهم عن الجادة.

هذا ما يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه البخاري وأحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن وهو حديث صحيح : «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعْرِبَ عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».

الوليد الآدمي في نشأته السليمة الفطرية يعبد الله عز وجل كما تعبده سائر البهائم وسائر المخلوقات ويسبح بحمده، فهو على الاستقامة الفطرية الأولى. هذه الاستقامة الفطرية الأولى تعبر عنها الآية الكريمة في قوله عز وجل آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**

فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

الصبي الصغير يولد على الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي الاستقامة : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾.

الفطرة في القرآن والحديث معناها الاستقامة على الدين، على الإسلام، على الإخلاص لله عز وجل. ويستعمل الناس هذه اللفظة في الكلام الدارجِ يقولون : هذا رجل فطري أي هذا رجل ساذج أو أبله أو مغفل. وليس هذا هو المعنى القرآني للكلمة.

الفطرة هي الاستقامة وهي جِدَّة الدين، كون الدين لايزال جديدا طريا في القلوب، وكون المخلوق يعبد الله حق العبادة، كما فطره الله. الطفل الصغير يسبح بحمد الله، ويعبد الله حتى يُعْرِبَ عنه لسانه.

---

(1) سورة الروم، الآية 29.

الحديث النبوي حد لنا حدا عنده ينتقل الطفل من مرحلة عدم التأثر بالبيئة والوالدين وبالمربي وبسائر المؤثرات الاجتماعية إلى مرحلة يتأثر فيها «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه**».

في الوقت الذي يستطيع الطفل أن يتكلم ويعبر عن مشاعره، في الوقت الذي يملك أداة اللغة التي تعبر عن أنانية ناشئة وليدة، ذلك الذي يقول أنا **!** في السنة الثالثة من سِنِي الطفولة تبرز هذه النفس البشرية التي تقول: أنا**!** وتتعزز بكلمة أنا **!** في هذه المرحلة التي عبر عنها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**حتى يعرب عنه لسانه**» تبرز الأنانية، وعندئذ تكون هذه النفس البشرية قد اتخذت كيانا متصلبا يمكن أن تؤثر فيه العوامل الخارجي، عوامل التربية.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه : «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يقول: اقرأوا : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ**

الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. زاد البخاري : **فأبواه يهَوِّدَانِه أو يُنصرانه أو يُمَجِّسانه. كما تُنْتَجُ البهيمة جمعاءَ، هل تُحسونَ فيها مِنْ جَدْعَاءَ ؟»**

إنما يشير صلى الله عليه وسلم بقوله «**فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه**» إلى عامل التربية، ولامفهوم للأبوين في الحديث.

معنى «لا مفهوم» بتعبير فقهائنا وعلمائنا أن الأبوين ليسا فقط المؤثرين الوحيدين في الطفل، بل يمكن أن يؤثر فيه غير الأبوين: البيئة الفاسدة تؤثر في الطفل، إن لم يكن أبواه فاسدين تكون في الأسرة عناصر فاسدة. تؤثر فيه، إن لم يكن في الأسرة عناصر فاسدة يكن في الشارع عناصر فاسدة تؤثر فيه، إن لم يكن في الشارع يكن في المدرسة، إن لم يكن في الشارع ولا في الأسرة ولا في المدرسة، خاصة في زماننا هذا، يكن في الأجهزة التي تنشر الفساد، وتعلم الفساد، وتعبر عنه، وتحض عليه: أجهزة الإعلام، الراديو، التلفاز، السينما، الجريدة، المجلة، الصور الخليعة....

لاشك أن في زماننا تكاثرت عوامل الفساد ففسدت الأسرة، وفسد الشارع، وفسدت المدرسة، وعم بلاء وسائل الإعلام. فالأبوان يتأثران بالبيئة العامة، يسمعان كلاما في الراديو ويريان نموذجا خليعا في التلفاز يتأثران به فيفرضان ذلك الذي سمعاه ورأياه على طفلهما من سلوك وكلام واعتقاد وموقف في الحياة. تتضافر عوامل الفساد والإفساد على طفولتنا وشبابنا ومجتمعنا فتسحب منه معاني الإيمان وتحل محلها معاني الفسق والكفر والعصيان، فساد في فساد في فساد. الإيمان اخلولق في قلوب الأفراد بعامل الإفساد الذي جاءنا زحفا من عالم الجاهلية الخارجية، ثم تمثُّلاً وقبولا منا نحن، ثم غزوا فكريا وثقافيا وخلقيا وسياسيا من أجيال أفسدها الجاهليون فتشربت قلوبها معاني الجاهلية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فما العمل ؟ الفطرة التي كنا عليها انحرفنا عنها ! القلب الذي أنشأه الله وفطره على الاستقامة انحرف وزاغ وارتد !

فها نحن نسمع أمر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو أمر لنا بالتبعية أن نستقيم، لكننا لا نستقيم: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1]، لكننا لا نأتمر ولا نستقيم !

هذا الكلام الذي نقول وعظ وشكوى، والوعظ والشكوى يفيدان قليلا، لكن الذي يفيد هو أن نهتدي إلى وسيلة بها يَنشأ فينا إيمان متجدد، وتَتجدد فينا مع الإيمان معاني العزيمة، وتتحول العزيمة إلى إرادة فاعلة مؤثرة جهادية.

يذكر ابن تيمية رحمه الله كلاما يجب أن نتأمله لكي ندرك أن علماءنا يقفون على مفصِل المشاكل فيدركونها إدراكا كاملا. يقول: «إذا كانت فيه –القلب– معرفة وإرادة، (العلم وحده لا يكفي لابد من العلم والإرادة)، إذا كان في القلب معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة،

(1) سورة الروم، الآية 29.

فلا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب».

وأقول: إذا صارت المعرفة إلى القلب وتنورت بالعلم حتى أصبحت في القلب إرادة قوية، لا يمكن إلا أن يطيعها البدن، وأن تطيعها أيضا القوى المعاكسة للإسلام. الوعظ والشكوى والتأوه على الإسلام؛ هذا ديدن القاعدين الذين يجلسون في أركان المسجد يقولون : فسد الدين وفسدت الدنيا وفسد الإسلام، لا حول ولاقوة إلا بالله ! ثم يهربون. هؤلاء الضعفاء، لهم حيثية في الإسلام، لكننا نحن وإياكم معشر الشباب، يجب أن نغذي الإيمان في قلوبنا بالعلم والتزكية والتربية حتى يصبح هذا الإيمان إرادة قوية، جادة، سائرة لكي تحارب عوامل الفساد والإفساد والكفر والعصيان.

قال الله تعالى : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[1]. معنى حنيفاً : نفسر القرآن

(1) سورة الروم، الآية 29.

بالحديث، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح رواه الإمامان مسلم وأحمد في ما يرويه عن ربه عز وجل: «**خلقت عبادي حنفاء فأحالتهم الشياطين عن دينهم**». هذا الحديث الشريف القدسي هو تفسير للآية الكريمة: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾. حنفاء، نجد في القرآن ﴿**حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾[1]، مثلا نسأل أهل العلم أهل اللغة ؟ نسأل عن معنى حنيف وحنفاء؟

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله في «الألفاظ القرآنية» وهو كتاب أساسي لكم معشر الشباب أن تقتنوه وتعتمدوه في فهم اللغة العربية لغة القرآن، لأنه بدون فهم اللغة لا تفقهون الكتاب الذي أنزل بلسان عربي مبين، والإبانة هي البيان وهي التوضيح وهي الإدراك الصافي الناصع. قال الراغب: «**الحَنَفُ** هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، **والْجَنَفُ** ميل عن الاستقامة إلى الضلال، والحنيف هو

---

(1) سورة الحج، الآية 29.

المائل الذي يميل من الضلال إلى الهدى».

قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]. وجد إبراهيم عليه السلام قومه يعبدون الأصنام، وجدهم في ضلال، فأقبل على الله بالاستقامة عن الضلال. وهكذا نحن مأمورون بأن نستقيم لله وأن نكون حنفاء بأن نميل عن عوامل الضلال وهذا بداية العمل التجديدي، تجديد الإيمان. الحنيف هو كل واحد يهجر أهل الفساد وأهل الإلحاد وينابذهم ويعاديهم في الله. قال تعالى : ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاء لِلَّهِ**﴾[2]. لأن الذي يشهد الزور إنما يشهد إرضاءً للذي دفع له ثمن الشهادة، فإذا مال عن ذلك الذي أغراه بالرشوة لكي يشهد لله فقد أصبح حنيفا لله.

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «تحنف فلان، أي تحرَّى طريق الاستقامة». الفطرة والاستقامة والتحنف والميل

---

(1) سورة النحل، الآية 121.
(2) سورة الحج، الآية 28-29.

معان قلبية، القلب هو الذي يبغض أو يحب، يميل إلى أو يميل عن، يُقبل على أو يعرض عن. في القلب تتكون كل هذه المعاني وتبرز عملا مستقيما أو منحرفا. هذا القلب هو مرمى نظر الله، «**إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[1].

هذا القلب الذي فطره الله عز وجل على الاستقامة وسخر لخدمته جوارح البدن ووسائل المال والمتاع، وجعل الأعمال كلها إنما تصح وتقبل بصلاح نيته، هذا القلب الذي ينظر إليه الحق عز وجل، يجب على المسلم المتطلع للإيمان الذي يريد أن يرقى من مرحلة الإسلام إلى مرحلة الإيمان أن يطهره حتى لا يرى الله عز وجل فيه هذه الكدورات، وهذه القاذورات، وهذه الظلمات المترتبة على الغفلة عن الله، وعلى المعاصي وعلى الاشتغال بما لا يعنينا.

(1) رواه مسلم وابن ماجة من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي لا يعنينا هو الخلافات بين المسلمين. لا تعنينا الأمراض؛ مرض الخلاف مرض مزمن إذا اشتغلنا به تكدرت قلوبنا وازدادت كدورة، وعجزنا عن القيام بالجهاد في سبيل الله. فمن يحدثنا عن القلوب وعن أمراضها وعن دوائها ؟

مَن يحدثنا عن ذلك؟ نقرأ القرآن الكريم ونقرأ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته الشريفة فلا يُنهِضُ الكتاب ولا تُنْهِض السنة هممنا، لماذا ؟ لأن كتاب الله عز وجل نور وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نور، فليست السنة آتية من عند العبد محمد صلى الله عليه وسلم لكنها أمر من الله عز وجل لنبيه الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يتصرف حسب الهوى، ولا يعمل بتوجيه الهوى. من يحدثنا عن صلاح القلب وفساده؟

إن الحديث عن القلب وأمراضه وحتى ذكر الذين كانوا يتحدثون عن هذه الأمراض ودوائها أصبح مظِنَّة للزيغ وسبباً لاتهام من ينطق به أنه زائغ عن الكتاب والسنة.

أريد هنا أن أسوق فقرةً للإمام الغزالي، هذا الرجل الذي جعله الله عز وجل في هذه الأمة من الأئمة الذين اجتهدوا لزمانهم ولزمانٍ غير زمانهم، وكان اجتهادهم مُنْصَبًّا على الصميم، على القلب وتصفيته، والنفس وتزكيتها. ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[1]، وأهل الذكر هم أهل العلم في كل ميدان.

جمع لنا أهل الحديث، رضي الله عنهم وجزاهم خيرا، سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم أهل هذا الفن، وهم أهل الذكر في هذا الميدان. فسر لنا أئمة المسلمين كتاب ربنا عز وجل ونقلوا لنا ما جاء في تفسيره عن السلف الصالح وعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم أهل الذكر في هذا الميدان. وعلماء آخرون منهم الغزالي، حدثونا عن فنهم، فهم كانوا أطباء يعالجون القلوب المريضة.

---

(1) سورة النحل، الآية 43.

يُروى عن الأعمش، رضي الله عنه، وهو من رجال الحديث ورواته الأساسيين، أن فقيها جاءه فسأله عن مسألة فقهية، فعجز الأعمش، رغم سعة اطلاعه في الحديث، عن الإجابة عنها. فقال الفقيه في ذلك الكلامَ الفصلَ. فسأله الأعمش : من أين أتيت بهذا الفقه ؟ قال : من حديث رويته عنك وهو كذا وكذا، فأنتم الصيادلة ونحن الأطباء.

فكذلك كان أطباء القلوب كالإمام الغزالي. يقول هذا الإمام في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تعالى لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» وفي قول الله عز وجل ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[1]، وفي قوله عز وجل ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[2] وفي قوله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[3]، يقول: "كم ذكره وكرر ذكره في القرآن –يعني

(1) سورة غافر، الآية 19.
(2) سورة الأحزاب، الآية 51.
(3) سورة الملك، الآية 13.

القلب– فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيراً وتهديدا للخواص من العباد" من هم الخواص من العباد؟

يحسِب بعض الناس أن الكل سَواسِيَّةٌ في الإسلام والإيمان. الله عز وجل خلقني وخلقك ونحن سواء ! لا ! خلق الله عز وجل فينا وبنا أعمالا تتفاوت في الصلاح والفساد. هذا التفاوت يصل إلى مرتبة تفصل بين عامة المسلمين وخاصة المؤمنين المحسنين. قال الله عز وجل: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾[1]، فإذا قالوا خاصةُ العباد فإنما يشيرون إلى هذه الآية الكريمة. فخاصة العباد هم الذين لايكتفون بمرتبة الإسلام حتى يسعوا إلى مرتبة الإيمان، وحتى يسعوا بعدها ليكونوا من المحسنين.

من الناس من لا تتوق نفسه إلى أن يكون الله عز وجل ولِيَّه ورسولُه صلى الله عليه وسلم. من الناس من ليس في قلبه همة ولا حرارة تدفعه لكي يطلب القرب من الله عز وجل. من الناس من لا يتزلف إلى الله عز وجل، ولا يبتغي

(1) سورة البقرة، الآية 105.

إليه الوسيلة، ولا يسأل عن سبل معرفته عز وجل، ولا عن سبل الوصول إليه.

همم فاترة وقلوب فارغة ! يقول الغزالي : "لأن المعاملة مع علام الغيوب، فانظر ماذا يعلم من قلبك". ها أنت أيها العبد أمام ربك عز وجل الذي ينظر إلى قلبك في كل لحظة ويحذرك، والله يعلم ما في قلوبكم : ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[1]، ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[2]. يقول الغزالي رحمه الله: "فالقلب إذن موضع نظر رب العالمين، فيا عجبا ممن ينظر إلى وجهه الذي هو موضع نظر الخلق فيغسله وينظفه من الأقذار والأدناس ويزينه بما أمكنه لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ويزينه كي لا يطلع الرب جل جلاله على دَنَسٍ وشَيْنٍ وآفة وعيب، بل يهمله بفضائحَ وأقذارٍ وقبائحَ، لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه وتبرأوا منه وطردوه! والله المستعان".

(1) سورة غافر، الآية 19.
(2) سورة الأنفال، الآية 43.

من الناس سطحيون يراؤون الناس ولا يذكرون الله، ينظرون إلى الخلق ولا ينظرون إلى الخالق، يتصرفون لكي يحبذ الناس أعمالهم.

وبما أني تحدثت عن الخلاف بين المسلمين أشير إلى دوافعه الخفية. لماذا نجد بعض الناس ينتظر ليصطاد هفوة من عالم أو زلة من مسلم أو تقصيراً من مصل في المسجد لكي يتلَقَّفَهَا ويستعملها سلاحا في وجه أخيه : أنت فَسَدت صَلاَتُكَ لأنك تركت السنة الفلانية، العالم الفلاني قال هذا يجوز وأفتى بفتوى لها وجه في الفقه لم تتعرَّض له: أنت جاهل لأنك لم تذكر الخلاف في المسألة.

لماذا يفعل بعض الناس ذلك ؟ يفعلونه لتكون لهم حيثية يُعرفون بها، ولكي تكون لهم رئاسة يمتازون بها. في المسجد إذا دخلت في الصف لا يعرفك الناس، تكون من يا أيها الناس، لكن إذا جئت تشتم الناس وتسفه آراء الناس أصبحت معروفا بالعالم !

العلم الحق هو الذي يصرفه صاحبه في التعليم، وفي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، لا لبذر بذور الشقاق بين المسلمين. لماذا لا نستفيد من كتاب الله عز وجل ومن أحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ لماذا ذلك؟ لأن قلوبنا ملوثة، مظلمة غافلة عن الله عز وجل، والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾[1]، أي لمن كان له قلب مُتَزَكٍّ، لمن كان له قلب على الفطرة، لمن كان له قلب حنيف مستقيم. أما من كانت النفس الخبيثة تغلب عليه وتوجهه فإنه لن يجد في الكتاب ولا السنة الذكرى ولا التذكير ولا الفائدة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وأسألكم أن تدعوا لأخيكم. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(1) سورة ق، الآية 37.